

# الصوت الصارخ في البرية

لو أنا شئنا حين تضح بنا الآلام  
ان نصرخ حتى تهتز قوائم عرش الله  
حتى يفرغ من صرختنا المأ الأعلى  
حتى تنطبق سماوات فوق الارض  
حتى ينهار علينا المعبد وعلى الاعداء

لو أنا شئنا لفعلنا شيئاً  
ولطرب المأ الأعلى من بعد فرع  
اذ يعرف ان خليفة رب الكون يحس  
ولنظر الجبار الينا في فرحة أم بوليد كاد يضل فعاد  
فالله وان كان عليما يسمع ما دون الهمس  
وبصيرا محص وشهيدا  
الا أن علينا أن نشعر ذاته  
انا لسنا أهون من دود الارض

لكننا نؤثر حين تضح بنا الآلام  
ان نبلع صرختنا في غير مشقة  
لا تتذوقها أطراف لسان  
لا تلمسها الاسنان  
لا نأبه حتى نمضفها  
لا نخشى ان تجرح منا الحلق  
او ان تخذعنا فتسده  
او أن ترتد الينا لو يرفضها الجوف الفارغ  
بل تتردى هائلة وادعة لتسد فراغ الجوف الفارغ  
وتحقق بندا غير صريح  
في صدر العهد اللامعلن  
الا نصرخ بل ندعن .

لو أنا شئنا أن نغسل وجها أضمرنا مقته  
ببصاق الاشدق المشدودة فوق الضحكة كمقدمة حذاء  
او اغمدنا السبابات المتشنجة بعين لا يبدو منها الا  
كهف مظلم

او قلنا لا  
ان صار الرفض ضرورة  
كضرورة قطرة ماء  
تنعش حلق الصادي الملقى في بئر جاف منذ سنين

لو أنا شئنا لفعلنا شيئاً

ولصار الوجه الممقوت عظاما نخرة  
لا تفرغ غير الاطفال  
ولصيرنا تلك العين  
مطفأة نردمها برماد الليل المستيقظ  
ولأدركنا شرف الكلمة  
هذي الموضوعة في البدء وفي كل ختام

لكننا اذ نضمر . . او نعلن مقتا  
نؤثر ان نبتلع البصقة  
حتى امتلأت منا بالادران جسوم ونفوس جوفاء  
ودهبنا بالسبابة ننبش ضرسا ينخره السوس  
ولوينا اطراف الاسنة لنلحق اشداقا مشدودات فوق  
الضحكة كمقدمة حذاء .

ونحقق بندا غير صريح  
في صدر العهد اللامعلن  
الا نرفض بل ندعن

لو أنا شئنا حين نجوع  
الا نتورع ان نأكل اصناما سوتها أيدينا من حلوى  
حتى ان قال السدنة ان الحلوى مسمومة  
او ان نتقاضى قسرا حصتنا في قربان اللات وعزى  
وهبل

او نأخذ قسرا - ان شئنا أيضا - كل القربان  
او لا نرهب - ان نذبح طوطم  
ان يفرغنا غضب الاجداد

لو أنا شئنا لفعلنا شيئاً  
ولكدنا

ووضعنا الفأس برأس كبير الاوثان  
وأشرنا ان يسأل - ان ينطق - عما أجرم  
ولما بقيت أسرار السدنة في طي الكتمان  
ولصارت نيران المعبد بردا لا يحرق  
ولشكر الاجداد صنيع الحفدة والابناء

لكننا حين نجوع  
نؤثر ان نستأذن ونسلم  
ونؤخر رجلا ونقدم  
ونقبل أعتاب ديار ونبسمل  
ونجر الاقدام الوسنى

حتى قارعة طريق  
ترصفه الرغفان الدافئة البيض  
وتوشيه قطوف دانية ونمارق  
وأباريق خمور  
وبحار غسل

ونتمق الفاظا نسمعها صندوق قمامه  
يتوسد قارعة الدرب  
نستجدي كسرة خبز عفنة  
من غير ادم  
ونحقق بندا غير صريح  
في صدر العهد اللامعلن  
الا نشبع بل ندعن

لو انا شئنا لمضينا مرفوعي الهامة  
ومشينا مرحا في الارض  
وشمخنا بالانف لتبلغ طول جبال  
لا نركع .. لا نسجد  
لا نغسل اقدام الخطائين  
بدموع حرّى مثالة  
ننهل منها صبح مساء  
بل نبترها اقدام الخطائين  
نصنع منها اوتادا لصفار حمير  
او فزاعات لعصافير  
لا نقنع .. لا نرضى  
لا ينطفئ لهيب صدور  
حتى نزرع عنهم ما البسناهم من اثواب  
فتبين العورات وينكشف المستور

لو انا شئنا لفعلنا شيئا  
ولزاحمنا بمناكبنا النجم  
ولذو بنا في الذات ضياءه  
ولكحلنا من نور الله عيوننا لا تفتى  
وضمائر يقظى  
ولعزت دمعتنا عن كل ذنوب الخطائين  
لا نذرفها الا وجدا ان سلبت بسمة طفل  
او لو جهلت كلمة عاشق قلب المشوق

لكننا - اذ نمضي - نمضي معقوفي الظهر  
نصنع من اجساد اقواسا او انصاف دوائر  
لا تتركز نظرتنا في حدق الناس  
وكأنا ابناء سفاح بين ملائك قدسية  
بل تنزلق الى الارض لتبحث عن اشياء ان فقدت  
لا ترجع

وتحقق بندا غير صريح  
في صدر العهد اللامعلن  
الا نشمخ بل ندعن

قد لا يصبح مثل خيال أرعن  
ان سيجىء الوقت لنفضح بندا غير صريح  
ونمزق عهدا لا معلن .

لا ندعن ... نصرخ ... لا ندعن  
لا ندعن ... نرفض ... لا ندعن  
لا ندعن ... نشبع ... لا ندعن  
لا ندعن ... نشمخ ... لا ندعن  
ونسير ... نسير ... نسير ... نسير  
طوفانا يسحق وجهها ممقوتا وعيونا خايبة جوف  
ويطيح بعرش اللات وعزى وهبل  
ويمد موائد من كبد طواطم  
ويديه بكل فخار وبكاره  
يمحو ادران الخطائين

لا تسألني كم يمضي حتى ذلك الحين  
انا لا اعرف ايان الساعة  
فانا لا انفت اشتات بخور  
واحدق في كرة بللورية  
لا احسن ان اصنع من فضل الثوب تميمة  
كي اودعها اسرار طلاس  
او اضرب اخماسا في اسداس  
كي اعرف لفة النجم  
واقول لكم ان الناس تدور بفلك الثور  
او ان عطارذ يطاء العذراء فيولدها جديا  
او ان شهابا يوشك ان ينقض - ونحن نيام -  
فيجعل ما قد بنى خرابا  
وذلك لان الميزان انقلب بهذا الكوكب  
فاذا العقرب يلثم نهد الزهرة  
والسرطان استشرى في خير بقاع الارض  
او ازعم ان الوجه المظلم للقمر يضيء فيافي الجوزاء  
او ان الاسد يصادق حملا يتبناه الدب الاكبر  
او لا اخجل ان اعلن ان القوس المكسور سيدمي صدر  
المرخ

لا تسألني كيف

فانا لست مسيحا بشرتم به  
لا تسترني كالرهبان مسوح  
وعلى كتفي لا احمل خرقة صوفي  
وانا لا اقف بعرض السوق .  
صعلوكا .. اعرض ترياقا لجميع سموم الارض  
استجدي ايدي الناس دراهم او تصفيقا عن معجزة  
وهمية  
بل ائي - يا سيدنا - لا اقريء صبيانا في مكتب قرية  
من زمن القيت عصاي ومقرعتي  
واتيت اليكم بالكلمة  
فلتبحث أنت عن الكيفية والتوقيت  
لكن لا تدعن

حمدي متولي مصطفى صالح

القاهرة